

* زياد مني

الاستشراق الألماني في عصر الإمبراطورية

الكتاب : الاستشراق الألماني في عصر الإمبراطورية - الدين والعرق والمعرفة العلمية

عنوان الأصلي: *German Orientalism in the Age of Empire - Religion, Race and Scholarship*

الكاتب : سوزان مارتشند

مكان النشر : كيمبردج

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الناشر : كيمبردج يونيفرستي برس

عدد الصفحات: ٥٢٦



من أهل الاختصاص، فانقسموا إلى أقلية مادحة وأكثريّة ناقدة، وهو ما استدعي قيام المؤلّفة بتناول بعض الانتقادات التي وجّهت إليها وشرح وجهة نظرها بالخصوص.

لنُعد إلى مادة الكتاب ونؤكّد أنه يملاً فراغاً كبيراً في كتاب الاستشراق المشار إليه؛ فمن المعروف أنه أهل المستشرقين الألمان على نحو كامل، ووجه جل اهتمامه إلى المستشرقين الإنكليز والفرنسيين، وجعل من الاستشراق الأميركي وارثاً لهم. وهناك من يرى أن إهمال إدوارد سعيد للمستشرقين الألمان لم يكن يرتكز على مرجعية وقواعد علمية، بل لأن استحضار كتاباتهم في المئة سنة التي تتعامل معها مؤلّفة هذا الكتاب سيعني بالضرورة نفي أطروحته القائلة إن الاستشراق كان الأداة الاستعمارية التي وظفتها الدول المستعمرة، إذ من المعروف أنه لم يكن لألمانيا أي طموحات استعمارية في الشرق في تلك

 يشي عنوان الكتاب بأن ثمة موضوعاً ما جرى تجاهله في كتابات سابقة، ويوجّي في الوقت نفسه بأنه موسوعة عن الاستشراق الألماني في مئة سنة، أي بين سنتي ١٨٣٠ و ١٩٣٠.

بداية، لا بد من تأكيد التأثير الكبير المؤلّف الاستشراق الذي كتبه الراحل إدوارد سعيد ولا يزال يستعمل مرجعاً للهادفة. كما لا بد من الاعتراف بأن قراءة نحو ستمائة صفحة ليس بالأمر الهين، خصوصاً عندما تكون مادتها مبتدعة أحياناً عن الموضوع فتخوض مؤلفته في تفصيات حيوات المستشرقين الألمان في تلك المرحلة، لكن من دون أن تعني ملاحظتنا هذه انتقاداً من الجهد الكبير التي بذلته في الكتاب ومن معارفها العلمية الموسعة بشأن المادة.

لقد دار حوار عميق بين قارئي الكتاب من علماء

* أكاديمي فلسطيني في علم الآثار، باحث في التاريخ القديم.

أن أكون في موضع القادر على إبداء رأي في ذاك الفرع من الدراسات الاستشرافية.

ربما وجب تقسيم المؤلف إلى جزأين: الأول يضم الفصول الثلاثة الأولى التي خصصتها العالمة للحديث في مجالات البحث الاستشرافي الألماني واهتماماته. الجزء الثاني يتعامل مع اتجاهات أو حركات محددة داخل الاستشراف الألماني، مع ترکيز خاص على حيوانات المستشرين وعيشهم في نوع من الانعزاز عن الحياة العامة في بلادهم. وهنا نكرر اقتناعنا بأن تخصيص المؤلفة جزءاً كبيراً من كتابها لهذا الجانب ما هو إلا رد مضمر على إدوارد سعيد، ولفت الانتباه إلى الشغرة العلمية، المقصودة، التي سمح باختراقها ملفه المهم.

نظراً إلى أن الاستشراف لا يعني بالشرق العربي فقط، وإنما يضم أيضاً دراسات تتناول كل ما يقع على الشرق من الغرب، بل وحتى جنوبيه، أي شمال أفريقيا، لكن بالبعد الحضاري أو الثقافي للمفردات، فإن المؤلفة لم تول الدراسات الخاصة بفارس والصين والهند واليابان، وغيرها، الاهتمام الكافي.

ومن المأخذ الآخر على الكتاب إهماله التعرض للجوانب الفنية والأدبية في الدراسات الاستشرافية، وهو أمر اعترفت به المؤلفة في معرض تجاذوبها مع المقالات الناقلة لكتابها. وهنا لا بد من التنويه إلى عمل مهم في هذا المجال تحدّياً، كتبته العالمة العراقية زينب البحرياني التي نشرت نظريتها في كتاب نساء بايل: الجندر والتمثلات في بلاد ما بين النهرين.

في الختام، نؤكد أهمية هذا المؤلف الكبير نظراً إلى ما يحويه من معلومات مهمة عن كبار المستشرين الألمان و مجالات إبداعهم، والأحوال التي عاشوها وعملوا فيها، وعلاقتهم الخاصة والعامة وتواصلهم مع المؤسسات الأكاديمية والحركات والاتجاهات الرئيسية في ميادين أبحاثهم. والكتاب مهم أيضاً لأنه يعني معارف القراء عن مجالات عمل كل منهم على حدة.

آخذين في الاعتبار نقاط النقد الموجهة إلى الكتاب، فلربما كان الأفضل للمؤلفة لو أنها عرضته على أنه «مقدمة في الاستشراف الألماني في عصر الإمبراطورية».

المرحلة، ولربما هذا ما دفع المؤلفة إلى الخوض في تفصيات حيوانات الكثير من المستشرين الألمان وعلاقتهم الخاصة وبالمؤسسات الحكومية، مع أنها لم تقل ذلك صراحة أو مواربة، لكنها لا تنفي في الوقت نفسه أن مستشرين ألمانياً أيدوا التوسع الاستعماري لبلادهم عندما وصل إلى ذروته في مطلع القرن الماضي، بيد أنها لم تعثر على دليل يدعم فرضية أن المؤسسة الألمانية الحكومية اعتمدت على كتابات المستشرين الألمان في غزوتها، أو أنها استفادت منها؛ بل إن المرء لا يجد أي أثر لقيام السلطات الألمانية باستدعاء أي مستشرق للعمل مستشاراً لديها بعدما بدأت خوض المرحلة الاستعمارية في مطلع القرن العشرين. والمؤلفة توضح أن كتابات المستشرين الألمان في تلك الفترة استمرت في متابعة الموضوعات التي كانت بدأتها، أي الجوانب اللغوية واللاهوتية والتوراتية واليهودية وما إلى ذلك، بما يوضح أن الاستشراف الألماني لم يجعل نفسية أداة استعمارية لدولتها، من دون نفي تأييد بعض كبار المستشرين لسياسات دولهم الاستعمارية التوسعية، بل وعنصرية بعضهم، لكن هذا أمر مختلف تماماً ولا علاقة له بطبعية الأبحاث الاستشرافية ولا بأهدافها التي أرى أنها كانت علمية في المقام الأول، وهو ما منحها صفة المرجعية العلمية الأكademie.

لا شك في أن إدوارد سعيد ظلم المستشرين الألمان باستبعادهم كلّياً عن الصورة التي رسمها في مؤلفة، على الرغم من معرفته أسماء علماء ألمان كبار قدمو دراسات استشرافية عميقه وفريدة لا يمكن تجاهلها. فهل من الممكن إهمال أبحاث أصيلة وبالغة الأهمية لمستشرين كبار مثل تيودور نلديكه وإغناز غولدتسير وكارل بُركلمن وماكس ملر وغيرهم؟ في ظني أن استبعادهم عن كتاب الاستشراف كان متعمداً وظلماً وتسويعاً لا مبرر له من وجهة نظر سياسية.

وقد تبيّن لي حين كنت أقوم بأبحاثي عن الشرق في ألمانيا أن معظم المراجع العائدة إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية هي لمستشرين ألمان، لكن من دون إهمال بعض المساهمات الإنكليزية والفرنسية. وحال عدم إمامي باللغة الروسية دون